

مدينة الأمس والحلم: عالم المدينة كما يتجلى في أشعار محمود درويش

المدينة في الشعر العربي الحديث:

يُعتبر موضوع المدينة ووصف تجربة الشاعر في عالم المدينة من القضايا المهمة والبارزة التي يتناولها الشعراء العرب المعاصرون، ونكاد لا نجد شاعراً عربياً معاصراً لم يطرق موضوع المدينة، بل ونجد أنّ هناك بعض الشعراء الذين استحوذ موضوع المدينة على غالبية تجاربهم الشعرية. ولم يقتصر موضوع المدينة على مدرسة أو مذهب شعريّ معيّن، بل طرّفه جميع الشعراء العرب في مختلف تياراتهم ومذاهبهم الشعرية: النيوكلاسيكية، الرومانسية، الواقعية والرّمزية. وقد برز موضوع المدينة في الشعر المعاصر، خاصّة في القرن العشرين، بالتزامن مع التطوّرات العلميّة، التكنولوجيّة، الصناعيّة، الاجتماعيّة، والسياسيّة، والتي شهدتها المدن العربيّة في العصر الحديث.

ومن يتتبع موقف الشعراء العرب المعاصرين من المدينة، يلاحظ أنّ هذا الموقف، عموماً، موقف سلبيّ رافض للتكيف مع المدينة وعالمها الماديّ، فمن الناحية الوجدانية، يصف الشعراء إحساسهم بالغربة، والوحدة، والضيق، والعزلة، والانطواء على الذات، والخوف، والقلق، والضجر، وأحياناً اليأس في عالم المدينة؛ ومن الناحية الاجتماعيّة يدين الشعراء فقدان العلاقات الإنسانية، ففي المدينة، يفقد الفرد التّواصل الإنسانيّ، ممّا يجعله يتمركز حول ذاته، وبالتالي يشعر بالضيق والمرارة والألم. والحياة في المدينة، كما يصفها الشعراء، حياة مصطنعة وليست حقيقية، إذ تفتقر للوجه الحقيقيّ الصادق للإنسانية، وتقدّم بالمقابل حياة مصطنعة وزائفة ومظاهر خداعة. بالإضافة إلى ذلك، يدين الشعراء الانحلال الخلقيّ والمفاسد الاجتماعيّة في المدينة، ومنها ظاهرة البغاء، ومظاهر الضجيج والازدحام، وضخامة التّجمّع البشريّ، وفقدان الهدوء والرّاحة، فهذا الازدحام يؤديّ إلى انسحاق الفرد وعدم وضوحه؛ وبالرغم من اتّساع المدينة الجغرافيّ، إلّا أنّها، بازدهامها السكانيّ، تصبح أقرب إلى السّجن منها إلى الحرّية. كما ويدين بعض الشعراء الطّبقيّة الاجتماعيّة في المدينة، وفقدان العدالة الاجتماعيّة في توزيع الثروة، وانقسام المجتمع إلى طبقتين بارزتين: طبقة العمّال الكادحين، وطبقة الإقطاع ورأس المال، وي طرح الشعراء النّظام الاشتراكيّ كبديل للواقع الاجتماعيّ المشوّه. ومن الناحية الاقتصاديّة يصوّر الشعراء مظاهر الجوع والفقر والحاجة الملحة إلى المال في عالم المدينة. أمّا من الناحية السياسيّة، يعبر الشعراء العرب عن رفضهم للواقع السياسيّ للمدينة العربيّة، الواقع الرّازح تحت وطأة الاستعمار والاحتلال والأنظمة الدكتاتوريّة والحروب الدّامية والقمع والاضطهاد والطّغيان السياسيّ، هذا الواقع تسيطر به قوى الظلم ونفوذ المستغلّين ممّا يولّد الإحساس بالقهر، والكبت، والخوف، وسلب الحريّات الإنسانية، والاعتراب السياسيّ، من هنا تُصوّر المدينة على أنّها ممارسة للظلم والاستعباد والاستبداد مع أهلها. ولم يكتف الشعراء العرب بإدانة الطّغيان السياسيّ في عالم المدينة، بل اقترنت هذه الإدانة عندهم بروح الثّمرد والنّضال والثّورة الرّافضة، والتي تقود إلى الولادة الجديدة والانبعاث والخلّاص. ونجد هذا الموقف الرّافض للمدينة عند

الكثير من الشعراء العرب الحديثين، نذكر منهم، على سبيل المثال لا الحصر: السيّاب، وحايي، والبياتي، وعبد الصّبور، وأدونيس، والحيدري، وحجازي، والفيتوري، والماغوط، وأمل دنقل.¹

المدينة في أشعار محمود درويش:

هنالك حضور بارز ومكثف لموضوع المدينة في أشعار محمود درويش، ويتّضح ذلك من خلال إحصاء عدد المرات التي ذكر بها الشاعر لفظة المدينة المحددة وغير المحددة في أشعاره، فقد وصل عدد تكرار كلمات المدن إلى ما يقارب المائتين وأربعين كلمة، وهذا مؤشر إلى أنّ الشاعر طرق موضوع المدينة بشكل كبير وبارز، وقد يتضاعف هذا العدد إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الحالات التي يتطرق بها الشاعر إلى موضوع المدينة بشكل تلمحيّ إيحائيّ، دون ذكر كلمة المدينة بشكل صريح ومباشر، وإذا أضفنا، أيضًا، أسماء المدن غير المحليّة التي ذكرها الشاعر في دواوينه، مثل بيروت ودمشق وبغداد ونيويورك وباريس وروما وغيرها.

ولعلّ تنقّل الشاعر بين المدن والبلدان المختلفة، المحليّة والإقليميّة، العربيّة والغربيّة، على حدّ سواء، جعله يتخذ موقفًا واضحًا وصريحًا من عالم المدينة، وبالتالي يعبر عنه من خلال أشعاره، فهو النازح عن قرية البروة، اللّاجئ في جنوب لبنان، الساكن في دير الأسد والبعنة والجديدة، الدّارس في كفر ياسيف، النّاشئ في حيفا، المسافر إلى موسكو ومصر، النّاشر في بيروت والخارج منها، المتنقّل بين رام الله وعمّان، والمتوفى في هيوستن.²

وبالنظر إلى عناوين القصائد، نلاحظ أنّ الشاعر ذكر أسماء مدن محليّة في بعض العناوين، هذه العناوين هي: "تحت الشّبابيك العتيقة: إلى مدينة القدس" (آخر الليل- 1967)، "امرأة جميلة في سدوم" (العصافير تموت في الجليل- 1969)، "عائد إلى يافا" (أحبك أو لا أحبك- 1972)، "حجر كنعانيّ في البحر الميت" (أحد عشر كوكبًا- 1992)، "غيمة من سدوم" (سرير الغريبة- 1999)، "في القدس" (لا تعتذر عمّا فعلت- 2004)، "في رام الله" (لا أريد لهذا القصيدة أن تنتهي- 2009). هذا بالإضافة إلى العناوين التي وظّف بها الشاعر لفظة المدينة، وهي: "قاع المدينة" (العصافير تموت في الجليل- 1969)، "غريب في مدينة بعيدة" (العصافير تموت في الجليل- 1969)، "المدينة المحتلّة" (أحبك أو لا أحبك- 1972)، "تأمّلات سريعة في مدينة قديمة وجميلة

¹ رضوان، عبد الله. المدينة في الشعر العربي الحديث. عمّان 2003. ص 11-64؛ حمود، محمّد. الحداثة في الشعر العربي المعاصر: بيّاتها ومظاهرها. بيروت 1996. ص 261-285؛ أبو غالي، مختار. المدينة في الشعر العربي المعاصر. الكويت 1995. ص 121-259؛ الورقيّ، سعيد. الموقف من المدينة في الشعر العربي المعاصر. الإسكندرية 1991. ص 31-52.

² لمزيد من التفاصيل عن سيرة الشاعر، راجع: عبد الحميد، مهّد. محمود درويش: سنكون يومًا ما نريد. السّلطة الوطنيّة الفلسطينيّة 2008. ص 13-20، 56؛ سعادة، ميشال. محمود درويش: عصي على النسيان. بيروت 2009. ص 41-43؛ عاشور، فهد. التكرار في شعر محمود درويش. بيروت 2004. ص 15-16؛ الرّضوان، عيد عون. الشعراء العرب في القرن العشرين: في حياتهم شعرهم آثارهم. عمّان 2005. ص 480؛ السّرطاويّ، معاذ. مختارات من الشعر العربي الحديث: دراسة وتحليل. عمّان 1989. ص 105-106؛ Meisami, J. & P. Starkey. *Encyclopedia of Arabic Literature*. London and New York 1998. pp. 183-184; Jayyusi, S. *Anthology of Modern Palestinian Literature*. New York 1992. p. 145; Jayyusi, S. *Modern Arabic Poetry: An Anthology*. New York 1987. p. 200; Asfour, J. *When the Words Burn: An Anthology of Modern Arabic Poetry 1945- 1987*. Canada 1992. p. 208.

على ساحل البحر الأبيض المتوسط" (حصار لمدائح البحر- 1984). أمّا عناوين الدواوين فهي خالية من الإشارات إلى أسماء المدن.³

أمّا المدن أو القرى المحليّة التي ذكرها درويش في دواوينه، وهي مرتّبة حسب نسبة تكرارها، ابتداءً بالأكثر تكراراً، وانتهاءً بالأقلّ تكراراً، فهي: المدينة/ المدن، القدس- أورشليم، أريحا، يافا، سدوم، عكا، حيفا، غزّة، اللد، الرملة، الناصرة، الخليل، رام الله وصفد. ومن الملاحظ أنّ أكبر نسبة تكرار هو لكلمة المدينة أو المدن، دون تحديد اسم المدينة، والاكتماء بالتعبير عن عالم المدينة بشكل عامّ؛ أمّا المدن المحليّة التي احتلت أكبر نسبة ظهور في أشعار درويش، فهي مدينة القدس، والتي أشار إليها في بعض الأحيان باسمها العبريّ أورشليم، تليها أريحا، يافا فسدوم. وفيما يلي جدول يوضّح عدد المرّات التي ذكر بها الشاعر لفظة المدينة المحدّدة أو غير المحدّدة في دواوينه في كلّ مرحلة من مراحل مسيرته الشعريّة.

المدينة	المرحلة الأولى 1977-1964	المرحلة الثانية 1992-1983	المرحلة الثالثة 2008-1995	المجموع
المدينة/ المدن	75	41	18	134
القدس	20	2	2	24
أريحا	5	5	5	15
يافا	12	2	0	14
سدوم	3	2	8	13
أورشليم	3	2	4	9
كفر قاسم	7	1	0	8
عكا	2	1	5	8
حيفا	6	0	0	6
غزّة	5	0	0	5
اللد	2	0	0	2
الرملة	1	0	0	1
الناصرة	1	0	0	1
الخليل	1	0	0	1
صفد	1	0	0	1
رام الله	0	0	1	1
المجموع	144	56	42	243

يتّضح من الإحصائيّات السّابقة أن نسبة تكرار كلمة المدينة في أشعار درويش متغيّرة وغير ثابتة، ففي المرحلة الأولى وصل مجموع كلمات المدن التي ذكرها الشاعر، سواء المدن المحدّدة أو غير المحدّدة، إلى مائة وأربع وأربعين، غير أنّ هذا العدد قلّ في المرحلة الثّانية بشكل ملحوظ، ليصل إلى ستّ وخمسين، وفي المرحلة الثّالثة وصل هذا العدد إلى اثنتين وأربعين كلمة، وهذا مؤشّر واضح إلى أنّ موضوع المدينة برز في المرحلة الأولى

³ بالإضافة إلى عناوين القصائد التي تحمل كلمة المدينة أو أسماء المدن المحليّة وظّف الشاعر في بعض العناوين أسماء مدن غير محليّة، عربيّة وغربيّة، تاريخيّة وحقيقيّة، هذه العناوين هي: "طريق دمشق" (محاولة رقم 7- 1973)، "حوار شخصي في سمرقند" (حصار لمدائح البحر- 1984)، "الحوار الأخير في باريس" (حصار لمدائح البحر- 1984)، "اللقاء الأخير في روما" (حصار لمدائح البحر- 1984)، "قصيدة بيروت" (حصار لمدائح البحر- 1984)، "مطار أثينا" (ورد أقل- 1986)، "ذهبتنا إلى عدن" (ورد أقل- 1986)، "أحد عشر كوكباً على آخر المشهد الأندلسي" (أحد عشر كوكباً- 1992)، "شكراً لتونس" (لا تعتذر عمّا فعلت- 2004). راجع: درويش، محمود. ديوان محمود درويش. ط 1. مج 2. بيروت 1994؛ درويش، محمود. ديوان محمود درويش. ط 14. مج 1. بيروت 1996؛ درويش، محمود. الأعمال الجديدة. بيروت 2004؛ درويش، محمود. كزهر اللوز أو أبعد. بيروت 2005؛ درويش، محمود. لا أريد لهذي القصيدة أن تنتهي. رام الله وعمّان 2014.

من مسيرة درويش الشعريّة، خاصّة في المرحلة التي كان فيها متّصلاً بالمدن المحليّة قبل خروجه من البلاد، فقد عاش الشّاعر في هذه الفترة داخل المدن المحليّة المذكورة في أشعاره، ولكن بعد سفره إلى موسكو عام 1970 ابتعد عن هذه المدن، وانكشف على مدن أخرى غير محليّة، عربيّة وغربيّة، ممّا أدّى إلى انخفاض نسبة تكرار أسماء المدن المحليّة في أشعاره.

ويرجع هذا التّغيير أيضاً إلى التّحوّل الذي طرأ على مضامين القصيدة الدّرويشيّة، ففي بدايات المسيرة الشعريّة عند الشاعر برزت المضامين الجماعيّة الجماهيريّة مثل القضيّة الوطنيّة والقضايا السياسيّة والأيدلوجيّة، خاصّة وأنّ الشّاعر انتمى إلى الحزب الشيوعيّ في هذه المرحلة، وقد جنّد أشعاره لخدمة القضيّة الفلسطينيّة ومقاومة الاحتلال، أمّا في المراحل المتقدّمة من مسيرة درويش الشعريّة طغت المضامين الدّاتيّة على الجماعيّة، فتخفّفت القصيدة من عبء القضايا الكبرى، وتناولت بالمقابل القضايا الإنسانيّة وتفصيل الحياة اليوميّة والتّجارب الدّاتيّة والمضامين الميثاشعريّة. وبإمكاننا اعتبار موضوع المدينة من المضامين الكبرى التي تناولتها القصيدة الدّرويشيّة في بدايتها، والتي تخفّفت منها فيما بعد لتأنس إلى القضايا الدّاتيّة. هذا بالإضافة إلى ارتباط هذا الانخفاض بالتّحوّلات التي طرأت على أسلوب الشّاعر، فبعد أن كانت أشعاره في بداية مسيرته الشعريّة تنسّم بالوضوح والمباشرة والخطابيّة، لاحظنا أنّ هذه الأشعار تتّجه بشكل تدريجيّ نحو الغموض والإيحاء والتّرميز، وذلك كلّما تقدّمتنا في المسيرة الفنيّة، ممّا ينعكس أيضاً على موضوع المدينة، فقد عبّر الشّاعر عن علاقته بعالم المدينة في المراحل الأولى بشكل صريح ومباشر، وذلك من خلال التّصريح باسم المدينة، أمّا في المراحل المتأخّرة يلجأ الشّاعر إلى التّلميح والإيحاء عوضاً عن التّصريح والتّقرير.⁴

موقف محمود درويش من عالم المدينة:

تعتبر التجربة الشعريّة الفلسطينيّة حالة متفرّدة لها سمات وخصائص تميّزها من حيث الظّرف التّاريخيّ الذي تمرّ به. وقد سبق وذكرنا أنّ الشعراء العرب المعاصرين تعاملوا مع المدينة، غالباً، تعاملًا سلبيًّا، إذ اتّخذوا منها موقفاً معادياً ورافضاً؛ أمّا في حالة الشعر الفلسطينيّ بشكل عامّ، وشعر محمود درويش بشكل خاصّ، نلاحظ أنّ العلاقة التي تربط الشّاعر بعالم المدينة هي علاقة روحانيّة قويّة، إذ يصرّو الشّاعر المدينة بصورة المحبوبة أو المعشوقة أو الأمّ، ممّا يمنحها طابعاً مقدّساً، ولأنّ الشّاعر فقد المدينة نجده يحنّ إليها ويكي على أطلالها المندثرة، باعتبارها الفردوس المفقود، وكثيراً ما ترتبط المدينة عنده برمز الأندلس وحادثه خروج العرب والمسلمين من الأندلس، لما تحمله من دلالات الخسارة والضّياع. وبالرّغم من أنّ المدينة ارتبطت عند درويش بمشاعر الحزن والأسى والفقدان، إلّا أنّه لم يعبّر عن مشاعر اليأس أو الاستسلام، بل يربط خلاص المدينة بفعل المقاومة والثّورة والتّضحية والفداء، كيف لا وهو أحد أضلاع مثلث المقاومة الشعريّة الفلسطينيّة؟ إنّ تجربة المنافي والثّبات والتّهجير جعلت الشّاعر يتمسّك بمدينته الضّائعة، باعتبارها مركّباً أساسياً من مركّبات الهويّة، وقد حاول الشّاعر تعويض خسارة المدينة من خلال استحضارها بتفاصيلها وملامحها وبيئتها ورموزها الماضويّة وذكرياته فيها، فهي مدينة مستعصية على المحو والتّسيان والتّلاشي، وذلك لإثبات حقّه

⁴ راجع التّطوّرات والتّحوّلات التي طرأت على القصيدة الدّرويشيّة من ناحية المبنى، المضمون والأسلوب في: حاج يحيى، آثار. الصّورة الشعريّة في شعر محمود درويش وأمجد ناصر: ملامحها وتطوّرها. أطروحة دكتوراه. رمت جان 2013. ص 102-108.

وجوده التاريخي، خاصة في ظلّ محاولات تهويدها وأسرلتها من خلال تغيير ملامحها، وطمس هويتها، الفلسطينية، وتغييب أسمائها العربية. يقول الشاعر في قصيدة "قاع المدينة" من ديوان العصفير تموت في الجليل (1969):

"تنفجرين الآن برقوفاً

وأنفجر اعترافاً جارحاً بالحب:

لولا الموت

كنتِ حجارة سوداء

كنتِ يداً محتطة نحيلة

لا لون للجدران،

لولا قطرة الدّم

لا ملامح للدروب المستطيلة

[...]

شكراً- صليب مدينتي

شكراً..

لقد علمتنا لون القرنفل والبطولة

يا جسرنا الممتد من فرح الطفولة-

يا صليب- إلى الكهولة

الآن،

نكتشف المدينة فيك

أه... يا مدينتنا الجميلة"⁵

تشير لفظة "القاع" الموظفة في عنوان القصيدة إلى عمق المأساة التي حلت بالمدينة في ظلّ الاحتلال، ويستهلّ الشاعر قصيدته بالفعل "تنفجرين"، الذي يدلّ على استمرارية المأساة والمعاناة في الزمن الحاضر، والذي يحمل بداخله دلالة الحروب الدامية، والموت، والدمار الناتج عن عملية الانفجار، خاصة إذا ما ربطنا دلالة الفعل بدلالة "البرقوق"، وهي ثمرة يشير لونها الأحمر إلى لون الدماء المسكوبة في المدينة دفاعاً عنها. مقابل هذه

⁵ درويش، ديوان، 1996، ص 251-253.

الحروب الدامية في المدينة هنالك حروب أخرى وانفجارات أخرى عاطفية تحصل داخل وجدان الشاعر نتيجة تعلقه بالمدينة وحبّه لها، ممّا يؤكّد أنّ علاقة الشاعر بالمدينة علاقة ايجابية، بل ومقدّسة، وقد لمسنا من خلال القصيدة نبرة العاشق الذي يخاطب محبوبته، ويبرز ذلك من خلال مناداته لها في نهاية القصيدة "يا مدينتنا الجميلة". كما ويشير الشاعر من خلال هذه القصيدة إلى فعل التضحية والفداء، والذي أنقذ المدينة من كونها "حجارة سوداء"، أو "يداً نحيلة"، كما وحافظ على ملامحها من الاندثار، وقد وظّف الشاعر رمزاً دينياً يحمل دلالة التضحية والفداء، ألا وهو رمز الصليب.

هذا وركّز الشاعر على معاناة سكّان المدينة الرّازحة تحت وطأة الاحتلال، فسوّر الحياة في المدينة على أنّها حياة كبت واضطهاد وسلب للحريّات، وقد برز في هذا المجال وصف تجربة السّجن في المدن الإسرائيليّة، خاصّة وأنّ الدّولة تعاملت مع أشعار درويش بشيء من الحساسيّة، فقد سُجن الشاعر مراراً وفُرضت عليه الإقامة الجبريّة، وذلك لما تحمله قصائده من مشاعر الثّورة والتّمرد والنّضال، والذي اعتبرته الدّولة الإسرائيليّة تحريضاً ضدّ أمنها. ومن مظاهر الكبت التي يعاني منها الفرد في المدينة المحتلّة، أيضاً، سلب حريّة التنقّل بين المدن المختلفة، وإن كان الهدف البحث عن مصادر الرّزق، وذلك من خلال فرض نظام التّصاريح والحصار والقتل. يقول الشاعر في قصيدة "قال المغني" من ديوان عاشق من فلسطين (1966):

"المغني على طريق المدينة"

ساهر اللّحن.. كالسّهر

[...]

أبعدوا عنه سامعيه

والسّكاري..

وقيدوه

ورموه في غرفة التّوقيف

شتموا أمّه، وأمّ أبيه

والمغني..

يتغنّى بشعر شمس الخريف

يضمدّ الجرح.. بالوتر!⁶

يحمل هذا المقطع أبعاداً ميتاشعريّة، فيشير الشاعر من خلاله إلى وظيفته الشعريّة، فهو المغني السّاهر الذي يحمل هموم أبناء شعبه، والذي تُفرض عليه القيود وتكبّل حرّيّته في عالم المدينة بسبب أشعاره، وقد أبعد هذا

⁶ درويش، ديوان، 1996، ص 84-85.

المغني عن جمهور قرّائه، ثمّ حُبِس في غرفة التوقيف، ونُكِّل به من خلال الشّتائم، علّه يرتدّ عن تمرّده وثورته في وجه الاحتلال، وفي ذلك إشارة إلى سجن محمود درويش والإقامة الجبريّة التي فُرِضت عليه مرارًا بسبب أشعاره وتصريحاته السياسيّة.

مقابل عالم المدينة يذكر الشّاعر عالم القرية، والذي يتّسم ببساطة العيش وبدائيّته وطيبه سكّانه، وعلاقة الشّاعر بعالم القرية تحمل أبعاد رومانسيّة ممزوجة بالحنين إلى المكان الأوّل الذي تركه درويش عام 1948، الحنين إلى قرينته "البروة" التي ودّعها أثناء الحرب، وعندما عاد إليها اكتشف أنّها لم تعد موجودة، ومنذ ذلك الوقت يعيش الشّاعر حالة من النّفي والاعتراب والتشّنت والصّياع في عالم المدن، وهو يحمل قرينته في ذاكرته ويحتفظ بتفاصيلها بوجدانه، من هنا نجد أنّ موضوع القرية عنده غالبًا ما يقترن بالهجرة والتشّنت، وكانّ علاقة الشّاعر المأزومة بعالم المدينة هي نتيجة لتلك اللّحظة التي فقد بها مكانه الأوّل. يقول الشّاعر في قصيدة "كلمات" من ديوان لا أريد لهذي القصيدة أن تنتهي (2014):

كلماتٍ كلماتٍ... تسقط الأوراق/

أوراق البتولا شاحبات، ووحيدات

على خاصرة الشّارع/ ذاك الشّارع

المهجور منذ انتهت الحرب. ونام القرويون

الودودون على أرصفة المدن الكبرى،

فرادى وجماعات/

على الشّارع يمشي شاعر

في قلبه ثقبٌ سماويٌّ

وفي عينيه مرّجٌ سابقٌ،

يمشي على أطلاله"⁷

يصف الشّاعر من خلال القصيدة أعلاه تشّنت أهالي القرى المهجرة "الودودين" في مدن المنافي، بعد أن فقدوا بيوتهم، وناموا على الأرصفة في العراء. وفي نهاية المقطع يعبر الشّاعر عن حنينه إلى قرينته وإلى مكانه الأوّل، البروة، الذي يحتفظ بتفاصيله وكأنّها ماثلة أمام عينيه.

ولم يخل وصف المدينة في أشعار درويش من الإشارات إلى الأحداث التّاريخيّة والسّياسيّة التي حدثت في القرن الماضي، من أبرزها حرب 48، وما تقترن به من تهجير للفلسطينيين، الهجرة اليهوديّة من الشّتات إلى البلاد، كذلك حرب 67، وما تقترن به من هزيمة للدّول العربيّة وخسارة الوطن بشكل كامل، كما ونجد عند الشّاعر

⁷ درويش، لا أريد، ص 151.

نوعاً من الجلد للذات التي تركت المدينة في حرب الـ48 ولم تتشبث بها أو تدافع عنها بما فيه الكفاية. يقول الشاعر في قصيدة "تحت الشبائيك العتيقة: إلى مدينة القدس" من ديوان آخر الليل (1967):

"إنني أقرأ في عينيك ميلاد النهار

إنني أقرأ أسرار العواصف

لم تشيخي.. لم تخوني.. لم تموتي

إنما غيرت ألوان المعطف

عندما انهار الأحباء الكبار

وامتشقنا، لملاقاة البنادق

باقعة من أغنيات وزنايق"⁸

وفي المقطع السابق إشارة إلى حرب حزيران 1967، فالنا الذالة على الفاعل في قوله "امتشقنا" تحمل دلالة الدّول العربيّة التي خاضت حرب 67، هذه الدّول واجهت الأسلحة الفتّاقة (البنادق) بالأغنيات والزّنايق، والمقصود الشّعارات الرّنانة والعنتريات والخطابات التي تبتّ روح الطّمأنينة والانتصار الموهوم، غير أنّ هذه الأسلحة (الشّعارات والخطابات) لم تتمكّن من التّغلب على البنادق، ونتيجة لذلك "انهار الأحباء الكبار"، وفي ذلك إشارة إلى الحركة النّاصريّة وباقي الدّول العربيّة التي خاضت حرب 67، وقد أسفرت الحرب عن خسائر فادحة في الجانب العربيّ.

وفي النّهاية لا بدّ من الإشارة إلى تمسك الشاعر بحلم العودة إلى المدينة المسلوبة أو المحتلّة. حتّى وإن كانت العودة منوطة بالموت أو الاستشهاد. يقول الشاعر في قصيدة "رباعيات" من ديوان أرى ما أريد (1990):

"أرى ما أريد من اللّيل.. إني أرى

نهايات هذا الممرّ الطّويل على باب إحدى المدن

سأرمي مفكرتي في مقاهي الرّصيف، سأجلس هذا الغياب

على مقعد فوق إحدى السّفن"⁹

يتنبأ الشاعر أو يستشرف في المقطع أعلاه نهاية رحلة النّضال عند بوابات "إحدى المدن"، فبعد الوصول إلى مدينة الحلم أو الواقع المسلوب، سيضع الغياب على متن سفينة ويودّعه، ذلك لأنّه عاد إلى مدينته، ولن يغيب عنها مرّة أخرى.

⁸ درويش، ديوان، 1996، ص 169.

⁹ درويش، ديوان، 1994، ص 380.

المراجع:

- درويش، محمود. ديوان محمود درويش. ط 1. مج 2. بيروت: دار العودة، 1994.
- درويش، محمود. ديوان محمود درويش. ط 14. مج 1. بيروت: دار العودة، 1996.
- درويش، محمود. الأعمال الجديدة. بيروت: رياض الرّيس للكتب والنّشر، 2004.
- درويش، محمود. كزهر اللّوز أو أبعد. بيروت: رياض الرّيس للكتب والنّشر، 2005.
- درويش، محمود. لا أريد لهذي القصيدة أن تنتهي. رام الله وعمّان: مؤسّسة محمود درويش والأهليّة للنّشر والتّوزيع ودار النّاشر، 2014.

المصادر:

- حاجّ يحيى، آثار. الصّورة الشعريّة في شعر محمود درويش وأمجد ناصر: ملامحها وتطوّرها. أطروحة دكتوراه. رمات جان: جامعة بار إيلان، 2013.
- حمود، محمّد. الحداثة في الشّعر العربيّ المعاصر: بيانها ومظاهرها. بيروت: الشّركة العالميّة للكتب، 1996.
- رضوان، عبد الله. المدينة في الشّعر العربيّ الحديث. عمّان: وزارة التّقافة، 2003.
- الرّضوان، عبد عون. الشّعراء العرب في القرن العشرين: في حياتهم شعرهم آثارهم. عمّان: الأهليّة للنّشر والتّوزيع، 2005.
- السّرطاويّ، معاذ. مختارات من الشّعر العربيّ الحديث: دراسة وتحليل. عمّان: دار المستقبل للنّشر والتّوزيع، 1989.
- سعادة، ميشال. محمود درويش: عصيّ على النّسيان. بيروت: رياض الرّيس للكتب والنّشر، 2009.
- عاشور، فهد. التّكرار في شعر محمود درويش. بيروت: المؤسّسة العربيّة للدراسات والنّشر، 2004.
- عبد الحميد، مهنّد. محمود درويش: سنكون يوماً ما نريد. السّلطة الوطنيّة الفلسطينيّة: وزارة التّقافة، 2008.
- أبو غالي، مختار. المدينة في الشّعر العربيّ المعاصر. الكويت: المجلس الوطنيّ للتّقافة والفنون والآداب، 1995.
- الورقيّ، السّعيد. الموقف من المدينة في الشّعر العربيّ المعاصر. الإسكندريّة: دار المعرفة الجامعيّة، 1991.
- Asfour, J. *When the Words Burn: An Anthology of Modern Arabic Poetry 1945- 1987*. Canada: Cormorant Books Inc. Second Edition, 1992.

Jayyusi, S. *Modern Arabic Poetry: An Anthology*. New York: Columbia University Press, 1987.

Jayyusi, S. *Anthology of Modern Palestinian Literature*. New York: Columbia, 1992.

Meisami, J. & P. Starkey. *Encyclopedia of Arabic Literature*. London and New York: Routledge, 1998.